لله في خلقه شؤون -
فكيف يسير التاريخ ؟

التاريخ عند عبد الناصر هو سلسلة مطردة من الأحداث في سياق متصل وعاقل ... ويقف خلف هذه الصيرورة التاريخية المنطقية – خالق – قادر وعادل وعاقل – فالتاريخ ليس خبط عشواء وليس فيه فجوات يملؤها الهباء ، وتاريخنا – تاريخ الأمة العربية – هو التجسيد الحي لهذه الفكرة أو قل إن شئت لهذه العقيدة .

فالأمة العربية التي لعب الإسلام دورا جوهريا في تأسيسها وهي تنتقل من مرحلة القبيلة إلى مرحلة الأمة مرورا بالدور الشعوبي .. حيث تستبدل الرباط القبلي أو العرقي إلى الرباط القومي مرورا بالدور الشعوبي حيث الانتماء لأرض يستقر عليها المجتمع ويختص بملكيتها ، انطلقت الأمة تصنع تاريخها المشترك متجاوزة في ذلك كل علاقة أدني – علاقة الدم أو العرق – إلي علاقة أرقي – علاقة الشعب ثم أخيرا الرباط القومي – ولقد كانت الدولة القومية الأولى – دولة المدينة – التي أسسها القائد والزعيم السياسي الفذ محمد بن عبد الله – قائد شعب كل المدينة مسلمين ويهود – هي البذرة الأولي لدولة العرب الأولى – دولة الوحدة – ... وما كان طرد اليهود من المدينة بسبب الاختلاف الديني ولكن بسبب خروجهم على رسول الله أو نقضهم المبادئ الدستورية الواردة في الصحيفة ... وما كان الرباط هناك سوى العيش المشترك الذي جعل من الجميع عربا ... والعروبة عند عبد الناصر كما دعا إليها زعيم ومؤسس دولة المدينة ... هوية وتاريخ مشترك تشكل عبر مواجهة مشتركة لظروف الحياة ... إنها ليست عرق أو دين ، إنها ثقافة ولسان .

إن القومية العربية كما يدعو لها أبرز قادتها في عصرنا الحديث هي تاريخ ولسان وهوية ... والتاريخ المشترك الذي صنعته أجيال الأمة المتعاقبة شكل وحدة الضمير واللسان الذي نزلت به رسالة آخر الزمان ... اللغة العربية والرسول الكريم هو الذي قرر أن العربية ليست بجنس ولكنها لسان ، وإذا كانت اللغة هي حامل الفكر ،

إذا وحدة اللغة تؤسس لوحدة الفكر ، والهوية التي هي حالة نفسية نصفها موروث والنصف الآخر المكتسب بطبيعة العصر الذي يشكل أمل الأمة وحلمها ... إنه التطلع لتجاوز الماضي إلى المستقبل دون قطع الجذور وأي إنسان وبالتالي أي أمة هي ضمير وفكر ومستقبل ... أليس كذلك ؟!

إذا فنحن جزء من أمة عظيمة اكتملت تكوينا فوق أرضها المسماة بالوطن العربي الذي هو ملكية تاريخية لكل الشعب العربي الذي قاتل من أجل وحدة ترابها واستشهد في سبيلها مسلميه ومسيحيه ... أجيال سبقت وأخرى على العهد باقية ومابدلوا تبديلا، ولم تفلح الغزوات الاستعمارية التي تخفت خلف الصليب في شق صفوف الأمة ليقتتلوا فيما بينهم ليخلو لها الجو وهو مادفع لورد كرومر – وهو استعماري قارح – لملاحظة أنه لا يوجد فرق بين مصري مسلم وآخر مسيحي سوي أن أحدهم يذهب للمسجد يوم الجمعة والآخر يذهب للكنيسة يوم الأحد أما ماعدا ذلك فكلهم ولاد (...) وبالمناسبة فقد كتب إلي حكومته محتجا للسماح بهجرة العاهرات أو البغايا الإنجليز إلي مصر فهو لايتصور أن يطأ بغي إنجليزية مصري منحرف جلف .

طبعا نجح آخرون من شياطين الإنس الذين يحمل بعضهم للأسف صفة العربي أو الجنسية المصرية أو الديانة الإسلامية أو المسيحية في زمن قبيح لاحق في إشعال نار الفتنة التي يطلق عليها طائفية ... إنها ريح السموم القادمة من البادية التي ابتدعت بدعة تصنيف الناس علي أساس الدين وعلى أساس المذهب في الدين الواحد وهي بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ونسوا أو تناسوا أوامر الدين الحنيف ورسوله الكريم التي أباحت شرعًا للمسلم أن يأكل طعام أهل الكتاب-﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ - بل ويتزوج منهم إن أراد شرط العدل في المهور

والمعاملة التي تمنع المسلم المقترن بكتابية أن يجبرها علي ترك دينها . ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة .

***

ولو لم يكن لعبد الناصر من إنجاز سوي طرده للإنجليز من أرض مصر لكفاه ، ولكنه انطلق يطهر كل أرض العرب من رجس الأجانب – نتذكر أنه عشية رحيل عبد الناصر كانت كل الأرض العربية باستثناء فلسطين السليبة وشبه جزيرة سيناء والجولان ولواء الإسكندرونة وإقليم عربستان وسبتة ومليلة قد تحررت من الاستعمار – ليس هذا فقط بل انطلق يعلنها حربا شعواء علي الاستعمار في كل أنحاء العالم الثالث حتى استحق بجدارة أن تضعه شعوب العالم الثالث المقهورة والمحررة حديثا علي رأس لجنة تصفية الاستعمار في الأمم المتحدة وأن يكون رمز الثورة العالمية وكل حركات التحرر الوطني ...وعندما يجتمع ممثلي هذه الحركات في بودابست ربيع عام ١٩٦٩ يقررون عقد مؤتمر دولي لمناهضة الاستعمار بالقاهرة خريف ١٩٧٠، ثم يقررون صرف النظر عن المؤتمر عقب رحيل القائد فقد أدركوا أن حركة التحرر العالمي برحيل عبد الناصر قد فقدت راعيها وأبوها الروحي والأسطوري في آن .

***

لقد قامت ثورة الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ في مصر بعد أن وصلت فيها الأمور حدا لا يطاق من الفساد والفقر والفوضي ، وكان ذلك النتيجة الطبيعية لعصور من النهب المنظم لمقدرات الوطن علي أيدي عصابات ودول وأفراد تسنم بعضهم سدة الحكم – ياللعجب – في البلاد – كان أكثرهم أجانب – وعندما أصبحت الجريمة عصية علي الإخفاء تقدمت قوي البغي والعدوان فأحرقت البلاد

تحاول إخفاء أثر الجريمة– حريق القاهرة يناير ٥٢- وفرضت الأحكام العرفية وتعاقب علي البلاد في ستة أشهر فقط ستة وزارات تحاول لم الأشلاء ورتق الخرق الذي اتسع علي الراتق – كما يقولون – ولكن هيهات ... كان ملك البلاد ذو الأصل الأجنبي يحتفل بميلاد ولي عهده علي أضواء النيران التي تأكل القاهرة عاصمة بلاده، ولم يهتز له جفن تحيط به ثلة من كبار الأعيان والملاك يشربون كؤوس المتعة الحرام في صحة الوطن المذبوح، وعلى بعد عدة كيلومترات تربض قوات الإحتلال الأجنبي علي ضفاف قناة السويس التي وضعوا يدهم عليها في غفلة من الزمن كأنها حق لهم حرموا منها أصحاب البلاد وجعلوا منها منطقة محرمة علي المصريين بل وصل الأمر أن قامت قوات الاحتلال بتصفية قوة البوليس المصرية كاملة – نقول كاملة – في حكمدارية الأمن بالإسماعيلية ، وكان جل ما استطاعت الوزارة في القاهرة أن تعينهم به هو الأمر بالصمود حتى آخر رجل ، وبعد المذبحة قام السيد وزير الداخلية كإجراء احترازي بفرض الأحكام العرفية علي البلاد ، وليس قطع العلاقات وطرد القوات المحتلة المعتدية من البلاد – التي أقسموا علي الدفاع عنها ، كان وزير الداخلية – فؤاد سراج الدين – مشغولا يومها حسب دفاتر مكتب التوثيق العقاري بالقاهرة بشراء (عمارة) وظلت اللمبة الحمراء التي تعلو باب مكتبه الوزاري مضاءة طيلة النهار حتى لايقاطع أحد أمور الصفقة الجارية أو التجارية لا فرق، فالبلد كله كان مجرد صفقة أو فرصة لافرق .... هناك مصريون تحرقهم لوعة الشوق لهذا الزمان ، زمان الضرب بالكرباج وحذاء المحتل والحاكم الأجنبي !!

كان علي القيادة الجديدة التي نضجت علي نيران الحرب فوق الأرض المقدسة ١٩٤٨ أن تنجز في وقت واحد عدة مهام جسام :

١ – تحرير التراب الوطني والإرادة الوطنية أولا من المحتل الأجنبي الذي نهب

البلاد والعباد واستغل مواردها وخيراتها وهو ما دفع أحد رجال الاقتصاد المصري اللامعين – د.راشد البراوي – إلي تشبيه الاقتصاد المصري بالبقرة السمينة الحلوب تأكل برأسها من مصر بينما يقع ضرعها الممتليء خارج البلاد ، وفي الصراع الضاري بين وحوش الغرب الضارية علي نهب مقدرات بلاد العالم الثالث وضعت موارد البلاد في خدمة المجهود الحربي لبريطانيا العظمي رغم أنف المصريين الفقراء مادفع المشيخ المراغي أن يقف معترضا علي دخول البلاد حربا لاناقة لنا فيها ولاجمل ودفع أحد الشباب إلى اغتيال النقراشي باشا رئيس وزراء مصر بعد قيامه بإعلان الحرب علي ألمانيا طمعا في أن تمنحه بريطانيا استقلالا حقيقيًا إسميا بعد أن تضع الحرب أوزارها ... وكانت بريطانيا قد وضعت يدها كاملة علي منطقة قناة السويس ومارست فيها كامل حقوقها كمالك .

٢ – التصدي لأطماع جيب استعماري زرعته القوي الغربية وعلي رأسها بريطانيا في قلب المنطقة العربية علي الجسر الواصل بين الجناح الآسيوي والجناح الإفريقي علي حدود مصر الشرقية وذلك تنفيذا لتوصيات المؤتمر الإستعماري الأوروبي الذي عقده هنري كامبل بانرمان بلندن ١٩٠٦ – وهذا موضوع حديثنا في وقت آخر – وكان هذا الجيب أو الكيان الاستعماري الاستيطاني الدخيل المؤسس علي رؤية توراتية أسطورية لايخفي مطامعه في المنطقة أو في مصر نفسها – إسرائيل الكبرى من النيل إلي الفرات – وكان هذا الكيان الغاصب لايفهم سوي لغة واحدة هي لغة القوة وفوق الأرض المقدسة كانت الحقيقة الفاجعة قد كشفت عن وجهها... كان الغرب يقف بكل قوته خلف العصابات الصهيونية بالمال والعتاد محاصرا العرب وعلى رأسهم مصر بعد أن مكن له رجل أوروبا المريض – تركيا العثمانية – نتذكر جميعا بيان العصيان (الحقير) الذي أصدره عبد الحميد الثاني و مكن به لبريطانيا وتوفيق

الخائن من ضرب الحركة العرابية واحتلال مصر ونفي قادتها خارج البلاد وتعرضهم لأكبر حملة تشويه وتجريح وصلت حتى نخاع الشخصية المصرية بعد أن كانت أوروبا كلها قد تحالفت مع الدولة العثمانية في ١٨٤٠ في تحطيم الجيش المصري وتحديد قواته إلي ١٨ ألف جندي جاء الاحتلال بعد ذلك في ١٨٨٢ ليجرد هذا الجيش من كل قوته ويضع علي رأسه ضباطا إنجليز يحرسون ضعفه ويحولونه إلي مجرد قوات خدمات لقواته أثناء الحروب البريطانية وهرواة تنزل علي أم رأس الشعب المصري إذا فكر في يوم من الأيام أن يثور علي هذه الأوضاع ، كانت البلاد تتعرض إلي نوع من ... « الإخصاء ». وكان علي الطلائع الثائرة من الجيش المصري التي تسربت في غفلة من عيون الغاصبين عقب إلغاء معاهدة ٣٦ أن تعيد لمصر « رجولتها » وذلك بإعادة بناء جيش قوي يحرر ترابها ويحفظ لها أمنها ... أمنها هي لا أمن أعدائها .

٣- إرساء قواعد العدل الاجتماعي في بلد غني كان الكثير من أبنائه يبيتون الليل علي الطوي وهو ما جعل حلم كل حكومة مصرية – بالاسم فقط - أن تنفذ مشروعا قوميا لمقاومة الحلفاء في مصر – راجع آخر خطبة عرش للنحاس باشا ١٩٥٢ - وكان التجسيد الحي للحرمان هو حرمان المصريين من كل الحقوق في ثروة البلاد وأرض البلاد ...وعندما يتنطع البعض ممن يتباهون بجهلهم علنا علي رؤوس الأشهاد دون خجل فيهاجمون عبد الناصر لتوريطه مصر – أم الدنيا!!- في حروب العرب دفاعا عن العرب وأرض العرب، يصمتون صمت الشيطان الأخرس عن حملة مصرية كاملة بلغت عدة آلاف في المكسيك ... نعم في المكسيك في عهد الخديوي إسماعيل ... ولكنه الوجه الآخر المظلم لمشكلة الفقر « ابن الغني يزمر وابن الغلابة مابيزمرش»... كان ذلك هو التجسيد الحي لمعادلة الثروة في مصر فمن يملك يحق له أن يحكم ، والملكية في مصر في ذلك الوقت كانت للأجانب أصحاب البلاد الحقيقيين ، ومعهم أذنابهم من التابعين من بعض أبناء لشعب

المصري ، ينتسبون إليه زورا وهم في الحقيقة أشد عليه من الأغراب .

كان توزيع الثروة بالعدل يعني بالتبعية إقامة السلطة الوطنية ، إذ كان ضرب مراكز القوة المالية يعني تجريد فئات إجتماعية من أسباب قوتها التي كانت تتسلط بها علي الناس تحت غطاء كاذب من الديمقراطية المشوهة ... كان حزب الوفد منذ نشأته ١٩١٩ هو الحزب الذي نصبته جماهير الشعب المصري مطالبا باسمها بالاستقلال الوطني وظل لما يقرب من ثلاثة عقود يدعي تمثيله للغالبية حتى بعد أن سقط في أيدي كبار الملاك ونسي القضية وطوال هذه الفترة لم يبق في سدة الوزارة سوى ست سنوات ووصل الأمر أن جاء إلي الوزارة في ١٩٤٢ كما يقولون على رأس الحراب الإنجليزية ضاربا عرض الحائط بمطالبات الأحزاب المصرية له بتأليف وزارة وطنية مفضلا الاستجابة لمطالب السفير البريطاني بتشكيل حكومة وفدية صرفة تستطيع – خداع الشعب المسكين – فتؤمن مؤخرة الجيش البريطاني في حربه مع المحور ... وكانت قمة المأساة/ الملهاة غضب بعض شباب الضباط المصريين لما لحق من إهانة بملك البلاد – الضعيف الذي لايملك من أمره شيئا ، وفي تقرير السفير البريطاني إلي لندن يصف السفير فاروق ب... الولد ، ويصف حملته العسكرية التي حاصر فيها قصر عابدين بالدبابات بأنها حملة لتأديب الولد – وقد وجد كثير من هؤلاء الضباط الشبان طريقه بعد ذلك إلي تنظيم الضباط الأحرار عندما نضجوا علي نيران الحرب فوق أرض فلسطين المقدسة .